

بين يدي رمضان

د. محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون يقول الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَةً وَأنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي حَنَبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿وَيُنحَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم: "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار، وصدت الشياطين" وروى ابن حجر في المطالب العالية عن سلمان الفارسي قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: "أيها الناس قد أظلكم شهر مبارك فيه ليلة خير من ألف شهر، فرض الله فيه صيامه، وجعل قيام ليلة تطوعاً، فمن تطوع فيه بخصلة من الخير كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، فهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، وهو شهر المواساة، وهو شهر يزداد فيه رزق المؤمن، من فطر فيه صائماً كان له عتق رقبة ومغفرة لذنوبه، قيل: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما نفطر به الصائم، قال: يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على مذقة لبن أو تمر أو شربة ماء، ومن أشبع صائماً كان له مغفرة لذنوبه، وسقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها أبداً حتى يدخل الجنة، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص ذلك من أجره شيئاً، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، ومن خفف فيه عن مملوكه أعتقه الله من النار".

أبها المسلمون أيام قليلة ويحل علينا ضيف كريم عزيز يغيب أحد عشر شهراً لينزل من قلوبنا ومن حياتنا ومن سلوكنا ومن مساجدنا بأنواره، ببركاته، بمداياه، بتلك الروح اللطيفة التي تغمر القلوب في هذا الشهر، شهر رمضان المبارك، شهر القرآن شهر الصيام والقيام، شهر الرحمة والمغفرة، شهر الانتصارات والفتوح.

شهر رمضان وهل أعظم من شهر رمضان فرصة يعود فيها الناس إلى ربه، وتستيقظ فيه القلوب وتثوب إلى رشدتها وتصطلح فيه مع الله، كم من إنسان كان شهر رمضان فرصة تحوّل فيها وضعه، وتغير فيها سلوكه، واستقام بعدها أمره، وصلحت تصرفاته. وفي هذه السنة بالذات يحل فينا شهر رمضان والصيف في أشد أيام حرارته، والنهار في أطول أيامه في بلادنا، ولكن قلوباً متعطشة لما فيه من بركات يهون معها حر الصيف، ويهون معها طول النهار وظمؤه مع لذة مناجاة الله ولذة التقرب إلى الله ولذة الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى.

كيف نستقبل هذا الشهر؟ كيف نستعد لاستقباله؟

أبها المسلمون، لو أن إنساناً أتى بأفخر طعام وأطيب حلوى وأشهى ما يمكن أن يقدم من طعام طيب لذيذ، ولكن الإناء الذي أعده ليوضع هذا الطعام فيه كان قدراً، فما مصير هذا الطعام الشهي الفاجر اللذيذ؟ إذا كان الإناء الذي بين يديك ليوضع هذا الطعام لك فيه إناء قدراً، والإناء هنا قلوبنا، الإناء هنا سلوكنا، الإناء هنا تصرفاتنا، فما لم نطهر هذه القلوب، ما لم نستغفر عن ماضٍ من تصرفاتنا، عن ماضٍ من أخطائنا طالما وقعت فيه نفوسنا من الآثام والذنوب، ما لم نطهر آنية قلوبنا وصحائف أعمالنا لنستقبل هدايا هذا الشهر وفضائل هذا الشهر وبركات هذا الشهر بقلوب طاهرة نقية تحسن تلقي بركات هذا الشهر، تحسن استقبال بركات هذا الشهر تكون مرآتها نقية تنعكس عليها أنوار هذا الشهر فتضيء حياتك، وتضيء سلوكك، وتضيء قلبك، وتضيء عقلك، وتصلح من حالك تزيدك قرباً من الله لا تزيدك بعداً عن الله. ما لم نصحح ما مضى، وما لم نستدرك ما كنا قد وقعنا فيه، كيف يمكن أن نستدرك بركة هذا الشهر، أقول إن الإناء الذي ستحل به بركات هذا الشهر إنما هي قلوبنا، إنما هي أفئدتنا، فما لم ننق هذه القلوب من أوضارها من أوساخها من أحقادها من ذنوبها من حالة البعد عن الله التي اعترتها؛ كيف يمكن أن تستقبل مرآة قلوبنا أنوار هذا الشهر !! ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا

كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الران هو ذلك الاتساح الذي تراكم على صفحة القلب فإذا سلطت الأنوار عليه لم تجد مجالاً لانعكاسها منه ولا لتظهر تلك الأنوار فيه، لذلك أو مرحلة من مراحل حسن الاستعداد لاستقبال هذا الشهر وحسن وفادة هذا الشهر ولتلقى بركاته وأنواره وفوائده وهداياه أن نصلح فساد قلوبنا، أن نبسط الأكف إلى الله عزَّ وجل تائبين إليه راجعين إليه لذلك ربنا تبارك وتعالى جعل هذا الشهر فرصة نستعد لها ونجني ثمراتها، نستعد لها بأن نظهر قلوبنا، بأن نظهر أفئدتنا أن ننظف جوارحنا، أن ننظف بيوتنا، أن ننظف أفواهنا وآذاننا، أن ننظف أيدينا من أن تمتد إلى الحرام، وأعيننا من أن تنظر إلى الحرام وألسنتنا من أن تنطق بالحرام من غيبة أو نيممة أو شتم أو إيذاء أو غير ذلك من آفات اللسان، ونظهر آذاننا من أن تسمع اللغو، نظهر أعيننا من أن تبصر وتنظر إلى ما حرم الله عزَّ وجل مما يجعل هذه الأعين نافذة تتسخ من خلال مرئياتها قلوبنا، يجب أن نتدارك النفس، أن نتدارك نفوسنا وقلوبنا وجوارحنا فنصطلح مع الله عزَّ وجل ونتوب إليه لنكون في شهر رمضان على حالة ننال فيها بركاته وننال فيها أنواره ونجني ثمرة التقوى في نهاية المطاف من أيامه، ألم يقل الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثمرة التقوى لا يمكن أن يبلغها إنسان مصر على الخطأ الذي كان عليه معن متمادٍ في طريق الغواية التي كان قد سلكها، نعم قد يرى من بركات رمضان ولكنها لن تبلغ التأثير في قلبه ولن تبلغ الفعل الذي ينبغي أن تفعله من نفسه، لذلك قلما نجد آثارها في نفوس الناس بعد رمضان نتيجة عدم استعدادنا لاستقبال رمضان.

أيها المسلمون، من حسن الاستعداد لاستقبال شهر الصوم شهر رمضان المبارك أن نتعلم أحكام هذا الشهر أن نتفقه في ديننا، أمرنا الله تبارك وتعالى أن نتعلم وأن نصلح أعمالنا وإصلاح أعمالنا بتعلم أحكامها بضبط تلك الأعمال وفق شريعة الله عزَّ وجل، ولذلك فإن من الاستعداد لهذا الشهر ملازمة مجالس العلم مجالسة مجالس الفقه التي نتعلم من خلالها ما يصحح الصيام وما يفسده، وآداب الصيام وسننه، وما يمكن أن يكون من آفات تعتري الصوم فتفسد كثيراً من آثاره وبركاته وثمراته، لذلك فإن علينا أن نلازم مجالس العلم التي يوثق بها، والتي يطمأن إلى نظافتها وإلى سلامتها وإلى صحتها.

أيها المسلمون، نحن على موعد بعد أيام قليلة لاستقبال شهر رمضان فلنكن على أهبة الاستعداد لاستقبال أنواره بمعرفة سليمة صحيحة بأحكامه وآدابه وشروطه. وأريد أن أستبق القول فأقول: إن صيام شهر رمضان منوط بثبوت هذا الشهر، وثبوتها إنما هو بأحد أمرين، إما بتمام شعبان ثلاثين يوماً، أو

برؤية الهلال في مساء يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان، فإذا رُوي الهلال فإن اليوم التالي لذلك هو يوم بدء رمضان، على أن ثبوت ذلك إنما يتم عن طريق ولي الأمر، ونحن أريد أن أكون صريحاً معكم، لقد تميزت بلادنا منذ سنوات كثيرة بأنها الأدق في ضبط بداية شهر رمضان، وهناك مجلس علمي فقهي لا يخضع لأي تجاذبات سياسية ولا لأي إملاءات، هو يرجع في ضوابطه وفي إثبات هذا الشهر إلى قواعد شرعية معتمدة، ولذلك فإن ثبوت شهر رمضان إنما يتم بناء على الإعلان الرسمي لبلادنا، والذي لا يخضع لأي إملاءات سياسية ولا غير سياسية، هذا الذي عهدناه في بلادنا منذ تلك السنة التي خضعنا فيها لاعتبارات أخرى، إذا بهم يصومون الناس ثمانية وعشرين يوماً بدلاً من تصحيح صيامهم، لأنهم لا يخضعون لضوابط علمية شرعية وإنما لاعتبارات أخرى؛ لكي يضيعوا الناس عن دينهم ويفقد الناس ضوابط أحكام شريعتهم، أقول: نحن هنا والله الحمد لدينا مرجعية علمية مطمأنٌ إليها من أهل السنة والجماعة ومن سائر أطياف هذه الأمة والله الحمد ممن يجتمعون في مجلس القضاء الأعلى في مساء التاسع والعشرين ينتظرون ويترقبون من يتبعون هلال شهر رمضان حتى إذا ما رأوه أثبتوا فإن غم عليهم أتموا شعبان ثلاثين يوماً، وهذا مما يجعلنا نشعر ببركة بلاد الشام التي خصها الله تعالى بذلك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين

خطبة الجمعة 2015-06-05